وصية عبد الملك بن صالح لولده

دراسة تحليلية فنية

الدكتور

عبد الوهاب عبد المقصود علي برانية

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله رب العالمين، حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلى وأسلم على معلم الناس الخير، ومخرجهم من الظلمات إلى النور، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين وبعد:

فإن الوصية باب عظيم من أبواب الأدب، وفن راق من فنونه النثرية، عرفت قديما في العصور الأولى للأدب العربي، واتخذت أشكالا عدة، بحسبانها رسالة أدبية تصدر عن شيخ مجرب، أو والد حريص على توجيه ولده، أو أم مدفوعة بعاطفة الأمومة نحو بنيها وبناتها، وما تحمله تلك المشاعر من صدق في القول والنصح، ورغبة في رسم منهج قويم يلتزمه الأبناء في حياتهم، يتجنبون باتباعه الزلل، ويقوّمون المعوج من سلوكهم، ويكتسبون به أسباب السعادة والسيادة؛ لذا كانت الوصية رغم ما فيها من مباشرة تحقق الهدف التواصلي، أو التداولي بشكل سريع ومباشر، ويظهر أثرها على المتلقى بشكل فوري.

وهذه الوصية التى نتناولها بالتحليل الموضوعي والفني– لرجل من رجالات الحكم والسياسة في الدولة العباسية، هو عبد الملك بن صالح الهاشمي، يوصى فيها ولده– هي ذات قيمة موضوعية وفنية في وقتها لحاجة ولده إليها، وتناول هذا النوع بالدراسة والتحليل، يذكى تلك القيم ويؤكد عليها.

ثم إنى أردت قبل تحليل الوصية أن أعرض مفهومها، وأنواعها وعناصرها، وما يخضع منها للدراسة وما لا يخضع، وقد أشرت في عجالة إلى صاحب

الوصية، وما تعرض له في حياته من محن، وما اكتسبه من خبرة الحياة وتقلبه في الولاية بين الموصل والرقة حتى انتهى مطافه بها، وألقى رحله ومضى، تاركا تلك الوصية شاهدة على حكمة بالغة وعقل مجرب وخبرة واسعة بالحياة.

وقد قمت بتحليل النص تحليلا موضوعيا، معتمدا فيه على معطياته، التى تعكس ثقافة عصرها وما تحمل من مضامين قيمية وتربوية ونفسية، أضافت للنص قيمة أدبية كبيرة، إضافة إلى القيمة الفنية والتعبيرية والجمالية التى يستطيع القارئ الوقوف عليها بين العبارة والأخرى، وهي – على تنوعها– يفصح النص عنها، وتضيف لقيمته الموضوعية قيمة فنية، بما تترك من أثر في نفس المتلقى يبقى على الزمن دليلا على رقي هذا النوع الأدبي وصدقه الفني.

(١)

الوصية: طبيعتها وعناصرها

الوصية مفرد، وجمعها:(وصايا)[١] وهي ما يتوجه به المرء إلى من يعنيه أمرهم، ومن هم دونه في خبرة الحياة وتجاربها، كالأب لأبنائه، والأم لبناتها، والقائد لجنده، وشيخ القبيلة لبقية أفرادها، والمربى لمريديه، والمعلم لتلاميذه، وقد قصرها بعضهم على الأهل والأقارب والأصدقاء، فالوصية عندهم تكون من المرأة لابنتها، ومن الرجل لقومه أو أبنائه عند مفارقة الحياة والارتحال عنها حين الشعور بدنو الأجل، أو عند حلول الشدائد، أو حدوث الأزمات[٢].

وبحسب ظروف قائلها عدها أسامة بن منقذ نوعين: (وصية الأحياء للأحياء– وهي أدب وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتبصرة بصالح عمل، ووصية الأموات للأحياء عند الموت بحق يجب عليهم أداؤه، ودين يجب عليهم قضاؤه، وقد أمرنا بالوصية بذلك عند الموت في الكتاب العزيز، والأخبار المروية عن رسول الله– ﷺ–، قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: "كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين

(١) المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية ط وزارة التربية والتعليم٢٠٠٠م ص٦٧٢

(٢) راجع: قصة الأدب في الحجاز: عبد الله عبد الجبار ود.محمد عبد المنعم خفاجي ط مكتبة الكليات الأزهرية ص٣١٣ وكذا كتاب: في تاريخ الأدب الجاهلي د.علي الجندي ط مكتبة دار التراث ١٩٩١م ص٢٦٨.

والأقربين بالمعروف حقا على المتقين، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم" البقرة١٨١[١].

والوصية على هذا النحو ليست مجال دراستنا، ولا هي بمحط أنظار الأدباء والدارسين؛ لأنها ليست أثرا فنيا يمكن تحليله وقراءته على أنه نص أدبي يخضع لمعايير الفن وقواعده، ولكن يُعْنَى بها الفقهاء في درس الفرائض والمواريث، وتبقى الوصية الأدبية المكتوبة لتدرس في قاعات الدرس الأدبي كأثر فني، شأنه شأن بقية الأجناس النثرية المماثلة أو المشابهة من خطابة ورسائل وغيرهما.

ولا بد فيها من عناصر ثلاثة: **الموصِى** (بكسر الصاد) وهو الذى يقدم الوصية ويقوم بها، ويشترط فيه أن يكون ذا خبرة بالحياة، متمرسا بها، عرك الحياة وعركته الحياة، وذاق حلوها ومرها، حتى صار لديه رصيد هائل من خبراتها وتجاربها، يؤهله هذا الرصيد لأن يقف موقف الناصح والموجه والمعلم، وغالبا ما تتوافر تلك الشروط في كبار السن والمعمرين، حيث يمنحهم طول العمر وبسطته مساحة منبسطة، يمكنهم من خلالها أن يقفوا على ما يصلح شئون الناس، ويجنبهم مخاطر الحياة، "وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة والعقل الواعى والتفكير السليم"[٢]، فبات من حقهم مع كثرة التجارب أن يقدموا الوصية لمن دونهم في الخبرة والتجربة، ومن

(١) أسامة بن منقذ: لباب الآداب تحقيق أحمد محمد شاكر مكتبة السنة بالقاهرة ط٢ ١٩٨٧م ص١ بعد المقدمة.

(٢) د.علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي ط مكتبة دار التراث ١٩٩١م ص٢٦٨، وانظر كذلك: نظرات فنية في الأدب الجاهلي د.فراج جودة فراج دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٩٩٠م ص٢٨٢.

الواجب على الأحداث ومن لا خبرة لهم بالحياة أن يستمعوا لهم ويأخذوا ما يصدر عنهم مأخذ الجد، ويتلقوه بكل اعتبار وعناية، وقد تصدر الوصية من الأصغر للأكبر على خلاف المعتاد، إذا كان الأصغر أهلا لذلك، لنبوغ ظاهر، وذكاء خارق، وعبقرية متفردة فيه، أو تراتب الصدق والحكمة في سلوكه وتعامله مع الآخرين؛ لكونه مؤيدا من السماء بوحي وعناية إلهية، كالأنبياء والمرسلين، فالوصية منهم هي الأصل يتلقاها الصغير والكبير على سواء، فالكل في حاجة إليها، لأنها صادرة من معصوم مؤيد من السماء، كما وجدنا في وصايا إبراهيم عليه السلام لأبيه "آذر"، كما حدثنا القرآن الكريم قائلا: "واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا. إذ قال لأبيه يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا. يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا. يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا" مريم الآيات من ٤١–٤٥، ووصايا نبينا محمد ﷺ لأمته، وهي كثيرة، ولا تخفى على أحد، وقد جُعِلَ من الدين ألا يبيت المرء إلا ووصيته مكتوبة إلى جنبه، لأنه لا يدرى متى الأجل.

والموصَى (بالفتح) وهو الذى توجه إليه الوصية، **والموصى به**، وهي المادة المقدمة من طرف لطرف آخر، بما تشتمل عليه من أفكار ومعان، وما تؤدى به من أساليب، وغالبا ما تكون الوصية في الخير، ويكون العمل بها في ذمة الموصى إليه إن كان قادرا على تنفيذها، فإن لم يقدر فلا حرج عليه في عدم الأخذ بها أو إمضائها، لأن الله عز وجل رفع الحرج عن الأمة، فيما لم يقدروا عليه، وقد تكون في غير الخير، كمن يوصى بقطيعة رحم، أو أخذٍ بثأر، أو منع الخير وعدم بذله في أوجه البر، أو من يوصى

ولده أو تابعه من تلميذ ومتعلم ومحب بمعاداة الوطن، والتفريط في حقوقه، وهي من أبشع الوصايا، لا تتوقع من عاقل، ولا تصدر إلا عن مختل في عقله وتفكيره، وهي لو حدثت دليل خيانة واختلال، ولا ينبغى أن يستمع لها أحد، ومن أغرب الوصايا وصية دويد بن زيد لأبنائه: (أوصيكم بالناس شرا، لا ترحموا لهم عَبْرَة، ولا تقيلوهم عثرة) وهي وصية كما يقول د. حسين نصار: "لم أطلع على مثيل لها فيما عثرت عليه من وصايا، وتكشف عن سوء ظن بالبشر شديد، وكراهية لهم عمياء"(١).

فالوصية على هذا النحو غير مقبولة ولا يجب العمل بها؛ لأنها تحض على ذميم الخصال، وتدعو إلى الفساد والإفساد، ولا حرج على من تقاعس عن تنفيذها، لأنها توصى بشر ومعصية، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وفى الكتاب العزيز يقول الله عز وجل: "وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون" لقمان١٥.

(٢)
تاريخ الوصية

(١) د.حسين نصار: في النثر العربي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م ص٤٥.

الوصايا قديمة، وموجودة في كل الآداب، ومعروفة **عند العرب قبل الإسلام**، وقد حفظت لنا كتب التراث كثيرا من الوصايا التى تركها السابقون لنا، والتى تحمل كثيرا من القيم والمثل العليا، حيث تحرص معظم فئات المجتمع على تحقيقها ولو بقدر، وهذا النوع الأدبي الذى نحن بصدد دراسته، قد يكون لمناسبة خاصة، ولا يصلح لغيرها، وقد تكون الوصية عامة ، تصلح لكل زمان ومكان، ولكل شخص يمكنه أن يستقبلها لحاجته إليها، وانتظاره لها من الموصى، أو لاستشعار الموصى بضرورة توجيهها إلى من يستحقها، كالوصية التى وجهتها أمامة بنت الحارث لابنتها وقد قرب موعد زفافها إلى بيت زوجها، وهي من أروع ما قيل أو نُصِحَتْ به فتاة في تلك المرحلة الجديدة من حياتها، التى تنتقل فيها من بيت أهلها إلى بيت زوجها.

تقول أمامة بنت الحارث لابنتها:

"أي بنية، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العش الذى فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا، يا بنية، احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح. والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مَغْضَبَة. والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله. فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير. ولا تفشى له سرا، ولا تعصى له أمرا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره، ثم

اتقى من ذلك الفرح إن كان ترحا، والاكتئاب عنده إن كان فرحا، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكونى أشد ما تكونين له إعظاما، يكن أشد ما يكون لك إكراما، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة. واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك"(١).

وهناك وصايا مشهورة يعلمها المتأدبون، والدارسون، مثل وصية أوس بن حارثة لابنه مالك، ووصية ذى الأصبع العدواني لابنه أسيد، ووصية أكثم بن صيفى لأولاده، وجميعها ترسم المثل الأعلى للرجل الجاهلي الذى يتحلى بأنبل الصفات من تواضع وتبسط للصغير والكبير، وإكرام للضيف، وإعزاز للجار، ونجدة للملهوف، وقوة وعزة ومنعة، وإقدام، وحلم، وحكمة، وتجنب للصغائر وعدم البغي والطمع وتجنب الظلم، وعدم الأخذ بالظن، أو الاستماع للوشاة، وكلها صفات كانت ماثلة في عقل وخيال الموصي في العصر الجاهلي، باعتبارها الطريق الموصل للسيادة والزعامة.

وفى **العصر الإسلامي** ازدهرت الوصية بشكل ملحوظ وتعددت موضوعاتها، نظرا لطبيعة العصر وظروفه، حيث كانت الدعوة الإسلامية رافدا ثريا لتطور هذا النوع وازدهاره، إضافة إلى الفطرة السليمة والنقية التى يتمتع بها العربي، والتى توارثتها الأجيال السابقة عليه جيلا بعد جيل، من تجارب الآباء وحكمة الأجداد، حتى

(١) انظر: جمهرة الأمثال أبو هلال العسكري ط دار الفكر ٥٧٢/١ والفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة ابن عاصم تحقيق عبد العليم الطحاوي ط١ دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٠هـ ١٨٦/١ ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ط١ دار الأرقم بن أبى الأرقم بيروت ١٤٢٠هـ ٢٣٢/٢.

كان عهد النبي ﷺ، فوجدناها بكثرة في أحاديثه كما روتها لنا كتب الحديث، ودلت هذه الكثرة على حرص النبي ﷺ على هداية أمته، وتبصيرها بما فيه صلاح شأنها في الدنيا والآخرة، فكانت وصاياه ﷺ قائمة على إرساء مبادئ الحق والعدل والمساواة، وتعزيز قيم المحبة والتراحم والتواصل، والحث على المسارعة في الخيرات، ونبذ كل ما يتنافى مع تلك القيم الراسخة والمبادئ الثابتة التى يتحقق بها الخير والنفع لكل الناس لا فرق بين أعجمي وعربي، وأبيض وأسود، وحاكم ومحكوم، من هنا كانت وصاياه ﷺ مؤثرة في الناس كافة، لتحقق عنصري الموضوعية والإنسانية في مضامينها، وهي مستمدة من عمومية دعوته، حيث أرسله ربه للناس كافة، لا لفئة دون أخرى قال تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون" سبأ آية ٢٨.

ولم تكن الوصايا الإسلامية بمنأى عن قيم الحق والخير وشمائل البر التى كانت موجودة في المجتمع الجاهلي على نحو من الأنحاء، فالإسلام لم يرفض كل ما هو قديم لقدمه، وإنما وضع تلك المنظومة الأخلاقية تحت منظار دقيق الرؤية، فما وافق مبادئ الدين وسماحته أقره ودعا إليه، وما خالف ذلك نبذه ونفَّر منه، فما زالت الوصية وفق هذا التقييم موصولة بحبائل قوية بالكثير من القيم الجاهلية التى تذكى النخوة العربية وتنبذ العصبية البغيضة، والتحيز المقيت.

وفى **عصر الخلافة الراشدة** كانت الوصايا ضرورية لإرساء قواعد الدولة، وإقامة مؤسساتها وبنيانها وتحقيق الخير للأمة

والمجتمع، فوجدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوصى أسامة بن زيد قائد جنده، ووجدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصى سعد بن أبى وقاص، وكانت وصايا الخلفاء لقادة الجند حين تجيش الجيوش وتتحرك للقاء الأعداء أو صد عدوان خارجي، هنا تكون الوصية حتمية وضرورية، حيث الأمر جلل، ويستلزم تقديم العون وعرض الخبرات المتراكمة، في التعامل مع الجند والأسرى، ومتطلبات القتال ومناورة الخصم وبث روح التفاؤل بين المقاتلين، مع الحرص على الالتزام بالمنهج الوسطي والاعتدال في الأمور كلها.

وفى **عهد الدولة الأموية** كثرت الأحزاب وتعددت الفرق الدينية والسياسية، وكل حزب له توجهه الديني والسياسي، لذا كانت الوصايا إحدى متطلبات العصر وأدواته لتحقيق مكاسب سياسية أو دينية أو مذهبية، فالأمويون يختلفون في توجهاتهم السياسية عن غيرهم من فرق الشيعة والخوارج، وكل فرقة لها أنصار ومؤيدون، وكلٌ له قناعاته وأفكاره، وقد اتخذت الوصية وسيلة أدبية لدعم تلك التوجهات والأفكار.

وعند سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ بدأ عصر جديد هو **عصر الخلافة العباسية** ازدهرت فيه الحياة العلمية والثقافية والأدبية، وتطورت العلوم والفنون، واتخذت الترجمة أداة للاطلاع على ثقافة الآخر والوقوف على منجزه الفكري والحضاري والثقافي، فازدهرت الوصية متأثرة بتلك النهضة الحضارية، وتعددت ألوانها حتى شملت كل الأنواع السابقة في العصور القديمة، بل أضيفت إليها ألوان طريفة لم تكن موجودة من قبل، مثل وصايا المكدين والمتطفلين

والمازحين من أصحاب الدعابة والسخرية، وهي تشير إلى مضامين اجتماعية متوافقة مع العصر، ولو خضعت للدراسة والبحث والاستنتاج لأسهمت في رسم صورة للعصر وتشكيل ملامحه الموضوعية والفنية، على الأقل في جانب أو أكثر من جوانبه، وتضيء الطريق أمام الباحث والمؤرخ والناقد، بما تضيفه إلى العصر من ملامح غير مباشرة.

(٣)

من هو عبد الملك بن صالح؟

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ويكنى أبا عبد الرحمن، ولاه المهدي على الموصل سنة ١٦٧ لما لمس فيه من حكمة ورشد، وفى عهد الرشيد عُزِل من ولاية الموصل ثم أُسنِد إليه ولايةُ المدينة ثم عُزِل وحُبِس، بعد أن بلغ إلى مسامع الرشيد أن عبد الملك يطمح بل يسعى للخلافة، فغضب عليه الرشيد لذلك وعاقبه، لكن ابنه الأمين عفا عنه بعد ذلك، وولاه على الشام والحجاز لثقته الزائدة فيه، فاتخذ الرَّقَّة دارا لإقامته، وكانت وفاته بها سنة ١٩٦هـ[١].

قال عبد الملك بن صالح يوصى ولده[٢]:

" أي بني، أُحلُم، فإن من حلُم ساد، ومن تفهم ازداد، والْقَ أهل الخير، فإن لقاءهم عمارة للقلوب، ولا تجمح بك مطية اللَّجاج، وفيُّك من أعتبك، والصاحب المناسب لك، والصبر على المكروه يعصم القلب، المزاح يورث الضغائن، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف، والاقتصاد يُثَمِّر القليل، والإسراف يبير الكثير، ونعم الحظ القناعة، وشر ما صحب المرء الحسد، وما كل عورة تصاب، وربما أبصر العَمِيُّ رشده، وأخطأ البصير قصده، واليأس خير من الطلب إلى الناس، والعفة مع الحُرْفَة خير من الغنى مع الفجور، أرفَق في الطلب وأجمل في المكسب، فإنه رب

(١) انظر: تاريخ الطبري ط٢ دار التراث بيروت ١٣٨٧هـ ٣٠٢/٢

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ ط دار ومكتبة الهلال بيروت ١٤٢٣هـ – ٣٠٦/٣

طلب قد جر إلى حَرَب، ليس كل طالب بمُنْجِح، ولا كل مُلِحٍّ بمحتاج، والمغبون من غُبِن نصيبه من الله، عاتب من رجوت عتباه، وفاكِه من أمنت بلواه، لا تكن مضحاكا من غير عجب، ولا مشَّاء إلى غير أَرَب، ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله، لا يكبُرَنَّ عليك ظلم من ظلمك، فإنه إنما سعى في مضرته ونفعك، وعوِّد نفسك السماح، وتخير لها من كل خُلُقٍ أحسنه، فإن الخير عادة والشر لجاجة، والصدود آية المقت، والتعلل آية البخل، ومن الفقه كتمان السر، ولقاح المعرفة دراسة العلم، وطول التجارب زيادة في العقل، والقناعة راحة الأبدان، والشرف التقوى، والبلاغة معرفة رتْق الكلام وفتْقه، بالعقل تُسْتَخرج الحكمة، وبالحلم يستخرج غَوْر العقل، ومن شمر في الأمور ركب البحور، شر القول ما نقض بعضه بعضا، ومن سعى بالنميمة حذره البعيد، ومقته القريب، من أطال النظر بإرادة تامة أدرك الغاية، ومن توانى في نفسه ضاع، من أسرف في الأمور انتشرت عليه، ومن اقتصد اجتمعت له، واللجاجة تورث الضياع للأمور، غِبُّ الأدب أحمدُ من ابتدائه، مبادرة الفهم تورث النسيان، سوء الاستماع يعقب العِيّ، لا تحدِّث من لا يُقبِل بوجهه عليك، ولا تنصت لمن لا يَنْمِى بحديثه إليك، البلادة للرجل هُجْنَة، قلَّ مالكٌ إلا استأثرَ، وقلَّ عاجز إلا تأخر، الإحجام عن الأمور يورث العجز، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ، سوء الطُّعْمَة يفسد العرض، ويُخْلِق الوجه، ويمحق الدين، الهيبة قرين الحرمان، والجسارة قرين الظَّفَر، وفِيُّك من أنصفك، وأخوك من عاتبك، وشريكك من وفى لك، وصفيُّك من آثرك، أعدى الأعداء العقوق، اتباع الشهوة يورث الندامة، وفوت الفرصة يورث الحسرة، جميع أركان الأدب التأنى للرفق، أكرِمْ نفسك عن كل دنية، وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لا

تجد بما تبذل من دينك ونفسك عوضا، لا تساعد النساء فيمللنك، واستبق من نفسك بقية، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار، خير من أن يطلعن منك على انكسار، لا تُمَلِّك المرأة الشفاعة لغيرها، فتميلَ من شفعت لها عليك معها.

أي بني: إنى قد اخترت لك الوصية، ومحضتك النصيحة، وأديت الحق إلى الله في تأديبك، فلا تُغْفِلَنَّ الأخذ بأحسنها، والعمل بها، والله موفقك"[1].

[1] - **اللجاج:** التمادى في الأمر، والخوض في الباطل، وهو خلق ذميم. **يبير:** يهلك **الحسد:**تمنى زوال نعمة الغير، وهو غير الغبطة التى تعنى التنافس في الخير، وأن يحب الإنسان أن يكون له مثل ما لأخيه = من غير تمنى زوال نعمته، والحسد مذموم والغبطة محمودة.**عورة:** ما يتوجب على الإنسان حمايته وستره.**الحُرْفَة:** الحرمان **حَرَب:** سلب المال وأخذه غصبا **أرب:** غاية ومقصد **التعلل:** المجيء بالعلل والأسباب وقد تكون ملفقة وغير مقنعة **اللقاح:** التكاثر والتناسل **رتق:** إصلاح الثياب **فتق:** قطع وتمزيق **غور:** الولوج في الأعماق **غِبّ:** نهاية وعاقبة **العِيُّ:** الفهاهة وعدم الإبانة عن المقصد **يُنْمِى:** يحدث بحديث **اجتلاب:** حصول **يُخْلِق:** يبلى **يمحق:** يمحو **الجسارة:** الجرأة والشجاعة والإقدام، وهي من صفات الأبطال **الظَّفَر:** النصر **صفيك:** من يصطفيه الإنسان لنفسه من الأصدقاء والمخلصين والموالين **رغائب:** جمع رغيبة، وهي ما يسعى الإنسان لتحقيقه من أوجه النفع والخير. **محضتك:** أخلصت لك وأظهرت ذلك.

(٤)

التحليل الموضوعي والفني للنص

أولا: التحليل الموضوعي:

في هذه الوصية الجامعة يقف بنا عبد الملك بن صالح الهاشمي وقفات عديدة، جمع فيها كل أوجه الخير، التى يرجوها والد لولده، وهي على خصوصيتها تعد دعوة عامة لكل الشباب للأخذ بأسباب الرقي، والتمسك بأهداب العلا، إضافة إلى ما فيها من قيم نبيلة ومبادئ سامية، حتى يتحقق لمن عمل بها الخير في الدنيا والآخرة.

ولما كانت الوصايا الموجهة من الشيوخ إلى الشباب، تهدف إلى تحقيق قدر من الاستجابة، إن لم يكن الاستجابة التامة لما يقدمونه من نصائح– حرص أصحابها على "أن يوفروا لها كل الأسباب التى تيسر هذا الامتثال، فأحاطوها بجو نفسي يمهد للامتزاج بين قائل الوصية ومتلقيها، أو بين متلقى الوصية والوصية نفسها، كيلا يشعر بأنها أمر خارجي موجه إليه ومفروض عليه"(١).

- فقد بدأ عبد الملك وصيته بقوله: "أي بني احلُم فإن من حلم ساد" وكأنه قد لمس جانبا مهما في طبائع الشباب، وهو الحماس الزائد، الذى قد يصل عند البعض إلى الطيش والنزق، فيحتاجون إلى خلق يكبح جماحهم، وليس كالحلم دواء لهذا الداء العضال الذى يدفع إلى الهلاك، ثم إنه قبل ذلك قد استخدم أسلوب النداء (أي بني) وهو وإن كان أسلوبا تقليديا متبعا في كل وصية يوصى بها والد ولده، غير أن

(١) د.حسين نصار: في النثر العربي ص٥٧

فيه براعة استهلال، وكأنه أراد أن يهيئ ولده نفسيا وعاطفيا لتقبل ما يقدمه له، فهو يخاطبه بلسان الأبوة التى تحمل الخير وتخلص النصح، وينادى فيه عاطفة البنوة، التى تستجيب دون تردد لثقتها التامة في صدق المشاعر، ثم إن في استخدامه فعل الأمر(احلم) كأنه استشعر منذ البداية أحقيته كوالد في التوجيه والإرشاد ولا يكون ذلك إلا بتوجيه الأمر المباشر لولده، وربما غلبت على عبد الملك طبيعة الحياة السياسية التى يمارسها كوال على الشام من قبل الأمين بن الرشيد، وطبيعة الولاية تستلزم توجيه الأوامر لمن هم في تبعية الوالى، حتى لو كانوا من الأهل والأقارب، غير أن الأمر هنا ليس على حقيقته، بل خرج إلى معنى مجازي هو النصح، ويدعم ذلك قوله في آخر الوصية: (ومحضتك النصح) وكأن الهدف كان ماثلا في مخيلته من البداية وحتى النهاية، وعبد الملك حين يبدأ وصيته لولده بالأمر بالحلم، واختيار تلك الصفة لتكون أساسا تبنى عليه حياته كلها، فلأنه يعلم أن الحلم شرط السيادة، فليس يسود في أقوامهم إلا الحكماء العقلاء، ومن يملكون أمر أنفسهم، ويضبطون أداءهم، لا يتملكهم الطيش فيجرون أهلهم إلى الهلاك، لذلك كان قوله: (فإن من حلم ساد) فهو يريد لولده أن يكون سيد نفسه حتى يكون مؤهلا لسيادة قومه، لذلك أوصى عبد الملك ولده بالحلم منذ البداية؛ ليقينه بأنه على رأس الفضائل التى يجب أن يتحلى بها الرجال، وهو يكرر وصاته بالحلم في أكثر من موضع من وصيته لأهميته، فيقول: "وبالحلم يستخرج غور العقل" وهو هنا بمعنى الصبر على طلب العلم

ومدارسة العلوم، فمن لم يتحل به لم يستطع سبر أغواره ولا الوقوف على غوامضه ومعضلاته، ولله در الشاعر:

ألا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

- ثم وجهه بعد ذلك إلى مجالسة الصالحين والأخيار، فالصاحب عنوان صاحبه ودليل عليه، "والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل"(١)، فمجالسة الصالحين تقرب المرء من ربه وتباعد بينه وبين الباطل؛ لأن في صحبتهم عمارة للقلوب، وتقوية للهمم، وسيرا على الصراط المستقيم، وقد دفعه ذلك إلى توجيه ولده لاختيار الصديق الوفي الذى يناسبه، وهو الذى لا يرضى له الدنية، ويكون مرآة صادقة لصاحبه، يبصره بعيوبه، ويزكى صفات الخير فيه.
- ويرشد ولده إلى الجلد في مواجهة الأزمات، فالصبر على المكاره يقوى عضد صاحبه، ويهون عليه مصابه.
- ثم يبين لابنه ضرورة أخذ الأمور مأخذ الجد، والبعد عن المزاح، الذى يذهب الهيبة، وينتقص من المروءة، ويحط من قدر الكرام، وفى موطن آخر يدرك أن الحياة لا تسير على نمط واحد، فليست كلها جدا لا هزل فيه، فالنفس تحتاج إلى الممازحة، والقلوب تمل وتضجر وتحتاج إلى الترفيه، وتخفيف حدة الحياة وأعبائها مطلب ضروري لإحداث التوازن بين الجد والهزل، لكن لكل شيء حد لا يتجاوزه، ولكل نمط وسلوك في الحياة من يحفظ له اتزانه، فالمفاكهة والمداعبة

(١) مسند أحمد بن حنبل الشيباني ط١ مؤسسة الرسالة ١٤٢١٢هـ-٢٠٠١م ٣٠٣/٢ حديث رقم٨٠١٥.

لها أهلها المقدرون لمغزاها والحكمة منها، ومتى تستدعى ومتى تطرح ويستغنى عنها، (فاكه من أمنت بلواه، ولا تكن مضحاكا من غير عجب، ولا مشاء إلى غير أرب) فالحياة ليست جدا خالصا لا هزل فيه، وإلا فقدت رواءها وبريقها وبهجتها.

- ثم يتجه بنصحه إلى جانب اقتصادي، أساسه الاعتدال والتوازن في الإنفاق، وعدم التبذير الذى يورث الفقر والعوز، فيلقى بظلاله الوخيمة على الإنسان، ويضطره إلى الاستدانة لمكافحة الفقر والحاجة، فيصيبه الهم والضيق والذل؛ لأن الدَّيْنَ همٌّ بالليل وذل بالنهار، فالدَّين يؤرق نوم المدين، ويحنى هامته لدائنيه بما لهم عليه من حقوق، وهو لا يريد لولده أن يسلك تلك الدروب، لذا نصحه بالاعتدال في النفقة وعدم الإسراف، فالقليل مع الاعتدال يجعل المرء في مأمن من المخاطر، والكثير مع الإسراف لا قيمة له، بل يورد صاحبه موارد التهلكة، وهو مبدأ إسلامي، قال تعالى: "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" الأعراف آية ٣١ وقوله سبحانه: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا" الإسراء آية ٢٩، فكأنه يتقمص شخصية لقمان وهو يوصى ولده بما فيه النفع له.

- والحديث عن الاعتدال في الإنفاق يستوجب من الإنسان أن يكون قنوعا، يرضى بما قسم له، ولا يطمع فيما لا حق له فيه، ولا يحسد غيره على ما أعطاه الله من نعم، وما وهبه من هبات، بل يحاول أن يقنع نفسه بعطاءات الله، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه، حينئذ يعيش بنفس راضية مرضية قانعة مطمئنة،

فيعيش سليم الصدر موفور الكرامة محبوبا من الناس، ويموت هانئا بقناعته مستريح النفس غزير الأجر.

- ثم يلفت نظر ولده إلى خلق إسلامي راق، وهو العفة وتحصين النفس من الهوى، وتجنب مزالق الشهوات، فالعفة سلاح الفقير، الذى يتحصن به، ويحظى بتقدير مجتمعه لأجله، بخلاف الغني الذى أبطره المال وجره إلى الرذيلة، حتى أصبح عبدا لشهواته، فأضر بدينه وعقله وسمعته، فضلا عن ماله الذى يذهب ضحية الطيش والفسق والفجور، وفى الحديث: "الزنى يورث الفقر"(١).

ويلاحظ أن عبد الملك ساق بعض وصاياه مستخدما أسلوب التفضيل، حيث يفاضل بين شيئين، أحلاهما مر، ولكن لا مناص من قبول أحدهما والرضى به، لأن فيه كرامة الآدمي/ولده، بخلاف الآخر ففيه ضياع هيبته، وانحطاط كرامته، فهو يفضل لولده أن يعيش على الكفاف مع حسن التدبير، ولا ينعم بالكثير مع الإسراف؛ لأن من تعود التدبير يمكنه أن يتعايش على الشدة والرخاء، بخلاف الآخر الذى اعتاد على التبذير والإسراف، فإنه تضيق عليه الدنيا بما رحبت إذا ولت الدنيا بوجهها عنه، ويفاضل عبد الملك كذلك بين أمرين آخرين قائلا: "اليأس خير من الطلب إلى الناس، والعفة مع الحُرْفة خير من الغنى مع الفجور" فأيهما أجدى وأنفع لولده: سؤال الناس ما عندهم مع ذل السؤال وسوء الرد، أم اليأس مما في أيديهم مع الحفاظ على ماء الوجه؟ وأيهما أبقى أثرا وأكثر نفعا: العفة مع

(١) شعب الإيمان للبيهقي تحقيق د.عبد العال عبد الحميد ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م ٢٩٦/٧ حديث رقم ٥٠٣٥.

الفقر أم الفجور الناتج عن الغنى؟ فقد يذهب الغنى ويعطى ظهره لصاحبه، ويبقى له عار الإثم والضلال والفجور، أما العفة فتمحو الفقر ولا يمحوها، وتجلب الحمد ولا يجفوها، فهي عنوان المروءة، ودليل الكرم وأصالة المعدن ونفاسة الجوهر.

وربما كان لجوء الموصى إلى هذا الأسلوب في المفاضلة بين شيئين أنه يعلم أن هذه الأشياء لا يتفق عليها كثير من الناس، فهناك من البشر من يحرص على الحياة: لا يبالى من أي مصدر جاءت، ولا بأية وسيلة اجتلبت، ولا يحفل بما أخذت أو أبقت من قيم الحياة ومبادئها، فالذى يعنيه من الحياة أنه يحياها على النحو الذى رسمه طموحه، وخطه هواه، حرص اليهود والمشركين عليها، قال تعالى: " ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة" البقرة ٩٦، ولما كان الأمر كذلك، فقد وجدنا عبد الملك يستخدم أسلوب التفضيل الذى يسلط عدسته على القيم النبيلة، والأخلاق الفاضلة، ويركز الضوء عليها كالواعظ الذى يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب فيكون أجدى وأنفع للمتلقى، فمن لم يُجْدِ معه هذا لا يعدم النفع في ذاك.

- ثم يعمق عبد الملك عند ولده فضيلة المراقبة لله عز وجل، بالابتعاد عن محارمه، وعدم الانتقاص من رصيد الخير الذى يلقى به ربه، (والمغبون من غبن نصيبه من الله) وهو كلام وجيز لكنه بليغ ومركز ودقيق.
- وهو ينصح ولده بالسعي في طلب الرزق، لكن لا بد أن يرسم له هدفا فلا يسير على غير هدى بحجة البحث عن الرزق، فقد يجمع الحاطب ثعابين ترديه وتهلكه، وما خرج إلا من أجل جلب الرزق

وتوفير القوت، لكنه لم يضع المخاطر في حسبانه، بل نظر دون بصر إلى ما يحققه من مكاسب، وما يجنيه من أموال، فركب الأمواج ولم يحسب للمخاطر حسابا، كراكبى البحر خلسة بطريقة غير شرعية للبحث عن عمل في دول على الشاطئ البعيد، فتغدر بهم الأمواج وتبتلعهم المنايا، يقول عبد الملك بن صالح لولده وكأنه يخاطب شبابنا في العصر الحديث– وهو ما يؤكد على القيمة الفنية لمضمون الوصية التى رغم خصوصيتها لكنها تستوعب كل الأجيال التالية– :"ارفق في الطلب، وأجمل في المكسب، فإنه رب طلب قد جر إلى حَرَب، ليس كل طالب بمنجح، ولا كل ملحٍّ بمحتاج" ثم يقول بعد ذلك : " لا تكن مشاء إلى غير أرب" فيا ليت شبابنا وفتياتنا يقرأون، ولو قرأوا ليتهم يفهمون ويستوعبون ويقتنعون!.

- ثم يقول عبد الملك موجها ولده، ومبينا له الطرق التى تجلب له السعادة وتحقق له الأمن وتحصنه من غيَر الدهر: "ومن نأى عن الحق أضاق مذهبه" فهو يوصيه باتباع الحق والانتصار له، واجتناب الباطل، ومفارقة طرقه، فإن من لزم الحق كثر محبوه وقل شانئوه، فيتسع الطريق أمامه، لكثرة أعوانه والداعمين له والواثقين فيه، والنازلين على رأيه، فتزداد هيبته، وتُسْمَع كلمته، أما الحائد عن الحق فينصرف الناس عنه وينفضون من حوله، وتضيع هيبته وتقل أو تنعدم ثقة الناس فيه، ويحيا بين الناس بغيضا، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويعيش منزويا بين مجتمع فسيح.

- ثم يلفت الوالد ابنه إلى شيء في غاية الأهمية، وهو عدم الانشغال بشيء لا يعنيه، فـ "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[١]. كما في الحديث الشريف، يقول عبد الملك لولده:(ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله) ذلك أن الإنسان إذا شغلته شئونه الخاصة عن خصوصيات غيره كان أوفر لوقته، وأحفظ لكرامته، وأسلم لجانبه أن يتهم في خلقه، بأن يقال عنه: متطفل، وهذا أقل ما يمكن أن يلحق به من الضرر.
- ثم يهدهد عبد الملك نفس ولده، بأن يسليه ويرفع معنوياته إذا وقع عليه ظلم أو لحق به أذى أو مكروه من ظالم لا يتقى الله في خلقه، معلما إياه أن الظالم لم يظلم في الحقيقة إلا نفسه، لأن المظلوم سوف تنتصر له السماء في الدنيا والآخرة، وسوف يقتص منه إن عاجلا أو آجلا، فهو الخاسر لا غيره، أما المظلوم فالحق إلى جانبه، والله نصيره، ومن كان كذلك فالغلبة له لا محالة، من أجل ذلك كله كان عبد الملك حريصا على غرس تلك الحقيقة في نفس ولده لتكون تسلية له إذا ما ذاق مرارة الظلم، وربما يكون للكلام وجه آخر غير مباشر، يريد الموصى أن يثبته في خلد ولده، وهو أن يبين له عاقبة الظلم حتى يتجنب الطرق المؤدية إليه، فيخرج منها أي من الدنيا لا له ولا عليه، وقد أفاد عبد الملك من مضمون الحديث

(١) سنن الترمذي تحقيق بشار عواد دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٨م ٥٥٨/٤ حديث رقم٢٣١٧.

الشريف:"أتدرون من المفلس.....؟" (١). في تعزيز صورة الظالم وتبشيعها بما تحمله من تبعات، وما يئول إليه حاله بعد رد المظالم، حيث تكون النار مثواه، فالظالم لو يدرى أنه قدم للمظلوم حجته وأسدى إليه خدمة لم يكن يحلم بها، في الوقت الذى أساء إلى نفسه بظلمه، ولو درى أن تلك عاقبته لامتنع وارعوى، وقد قيل في فضل الأعادى للمرء:

عِدايَ لهم فضلٌ عليَّ ومنَّـــةٌ

فلا أبعد الرحمان عنى الأعاديـــا

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتهـــا

فأصبحت مما زله العُرْبُ خاليـــا

وهذا ما أراد عبد الملك أن يصوره لولده حين قال: "لا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه إنما سعى في مضرته ونفعك، وعود نفسك السماح، وتخير لها من كل خلق أحسنه"

فإذا ما استقر هذا المعنى في ذهن ولده فقد أمن من عاقبة الظلم، وأراح نفسه من التفكير في طرق الانتقام، بل يسلك سبل العفو والسماح حتى يزداد رصيده عند ربه، وهو ما أشار إليه في موطن آخر من الوصية ذاتها حين قال: (والمغبون من غبن نصيبه من الله).

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء الكتب العربية د.ت ١٩٩٧/٤ حديث رقم ٢٥٨١.

– ويوصى عبد الملك ولده بتخير أجمل الصفات، لتكون من شمائله، ثم يعوِّد نفسه عليها ، حتى تكون من عوائده ولوازمه، فحسن الخلق عادة لمن درج عليه، وقد قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوده أبوه

ومن تلك الخصال المرغوبة التى يرتضيها لولده حفظ الأسرار بعدم إفشائها، ومدارسة العلم، والوقوف على تجارب الأمم، فهي كفيلة بصون العقل وزيادة الفهم، والإفادة من أحداث التاريخ.

– ثم حذر ولده من صفتين ذميمتين، هما: الغيبة والنميمة، فهما تجلبان المذمة وتبثان الكراهية، وتحدثان الفرقة، وتجلبان سخط القريب والبعيد.

– وختم الوصية بعرض جملة صفات، يغريه ببعضها تارة ويحذره من بعضها تارة أخرى: يغريه بالاعتدال في أموره كلها، وحسن التأدب، وعزة النفس، والإقدام وعدم الهيبة، والجسارة، والتأنى والرفق، ويحذره من سوء الاستماع، وسوء الطعمة (أكل الحرام) والعقوق، واتباع الشهوة، ومخالطة النساء، والتبذل والانكسار لهن، ويدعو له في نهاية الأمر بالتوفيق والسداد.

ثانيا: التحليل الفني:

وإذا كنا قد أشرنا في بداية تلك الجولة من تحليل وصية عبد الملك لفطنته إلى أهمية التهيئة النفسية للموصَى، حتى يتقبل الوصية ويقبل عليها، مستخدما معه كل وسائل التهيئة، بمخاطبة صلة التراحم، ونداء البنوة، والحنو الأبوي، فإن تلك التهيئة النفسية لم تغب عن بال الموصِى من البداية وحتى النهاية، فهو يختم وصيته بما بدأ، بالنداء على ابنه: (أي بني) وكأنه

يريد منه أن يضع في ذهنه دائما، أن الوصية المقدمة له من والد رحيم محب حريص على أن يرى ولده في أحسن حال.

وقد اعتمدت بعض عبارات عبد الملك على بعض الخصائص الأسلوبية التى يميل إليها الإنسان العربي، كالتنغيم الموسيقي المبني على الجمل القصيرة، والجناس والسجع، والتضاد، إضافة إلى الروح الدينية التى تتخلل الوصية كلها، وكل ذلك – لا شك يهيئ المتلقى لقبول النصح والمضي في تحقيق الهدف المنشود.

وأسلوب الوصية محكم، وألفاظها جزلة، ومعانيها واضحة لا غموض فيها، وهي مجموعة من الجمل المترابطة، التى تتعانق فيها الفكرة، فتأتى الفكرة مدعومة بشواهد تؤكدها من الواقع، ولا يمكن إنكارها أو استبعادها، ثم إنه اعتاد على التكرار، فيحدثنا عن الحلم والقناعة واختيار الصديق في أكثر من موضع وكأنه يؤكد على ما يدعو إليه ويطالب ولده بالتزامه، لخطورة الموصى به، وشدة حرصه على تمثله في الوقت ذاته، ورغم ترابط جملها الواضح فإنها تصلح في كثير منها أن تقف منفردة، لتؤدى دورها المسوقة من أجله، في شكل حكمة دوارة تصلح للتداول بين المتلقين، ويمكن استدعاؤها في مواقف مشابهة لتؤدى الدور نفسه، أو لتدعم فكرة مثيلة، من تلك الجمل قوله: (من حلم ساد – من تفهم ازداد – نعم الحظ القناعة – شر ما صحب المرء الحسد – المغبون من غبن نصيبه من الله – من شمر في الأمور ركب البحور – أعدى الأعداء العقوق) وباستقراء الوصية نجد أنها عبارة عن مجموعة من **الحكم** المتراصة المتتالية، التى يمكن اعتبارها من الأدب الراقى، وهذا يؤكد عندنا عدة أشياء:

- أنها صادرة عن عقل راجح وإنسان بصير، وشيخ مجرب، عرك الحياة وعركته الحياة.
- أنها تصلح للتداول في كل زمان ومكان، وهذا شأن الأدب الراقى، الذى يخاطب العقول والأفهام والطبائع المختلفة.
- أنها قيلت بأسلوب واضح لا افتعال فيه، ولا صنعة ولا تكلف، وهذا متوافق مع صدق المشاعر، فالتقى فيها الصدق الفني بالصدق العاطفي، وهذا الالتقاء يعلى من شأن الأدب.
- أنها تتخطى حدود الزمان والمكان، فهي تصلح لمخاطبة جمهور عصره، ومن يأتى بعدهم إلى وقتنا هذا.
- أنها تدعم مجموعة من القيم الخلقية، التى تنهض بالأمم والشعوب، كما تحذر من أخرى سلبية قد تكون معول هدم إذا ما تفشت بين الأفراد والجماعات.
- الوصية وإن بدت ذات طابع شخصي، من والد لولده، لكنها في الحقيقة رسالة إلى كل شاب وفتاة لتكون منهج حياة، فقد انتقلت من الخصوصية إلى العمومية، وهذا في حد ذاته يعلى من قيمتها التداولية.
- أنها تعتمد على ركائز أساسية، مستوحاة ومتوافقة مع مبادئ الإسلام وقيمه السمحة، ولا تصطدم بأي منها على الإطلاق، وقد رأينا توافقها مع نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكل ذلك يزيد الوصية جمالا وإقناعا.

وقد أجاد عبد الملك بن صالح استخدام **موسيقى النص** بأشكال مختلفة وأساليب متعددة منها:

- السجع المطبوع غير المتكلف، الذى يضيف إلى النص جمالا ورقة وانسجاما واتساقا، ولا ينتقص منه، من ذلك قوله: (من حلم ساد ومن تفهم ازداد – وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف – رب طلب قد جر إلى حرَب –عاتب من رجوت عتباه وفاكه من أمنت بلواه).
- استخدام المتضادات مرة عن طريق الطباق بين معنى وآخر، وأخرى عن طريق المقابلة بين أكثر من معنى، فمن الأول قوله: (العمي والبصير– مضرته ونفعك – البعيد والقريب – الخير والشر) ومن الثانى قوله: (الاقتصاد يثمر القليل، والإسراف يبير الكثير – العفة مع الحُرْفَة خير من الغنى مع الفجور) ولا شك أن اجتماع المتضادات يزيد الجملة وضوحا، على حد قول بعضهم:

  ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

  وهو سر من أسرار جودة التعبير.
- ومرة ثالثة تكون أداته لتلوين موسيقى النص هي الجناس، تاما وناقصا، من ذلك قوله: (الياس خير من الطلب إلى الناس – رتق الكلام وفتقه) وهذا السجع يمنح الجمل نوعا من التوازن الموسيقي، ويجعلها تمر اللسان والخاطر بانسيابية وسهولة ليستا لغيرها من الجمل.

وأسلوب عبد الملك بن صالح ليس كله خيالا محلقا، أو حقيقة مجردة، وإنما هو يدور بين هذا وذاك، فكثيرا ما يلجأ للأسلوب الحقيقي

مدفوعا إليه، وأحيانا يجد أن التصوير أجدى في نسج خيوط فكرته فيلجأ إليه، من ذلك قوله: (ومن الفقه كتمان السر – لا تساعد النساء فيمللنك – من شمر في الأمور ركب البحور – لقاح المعرفة دراسة العلم).

وأخيرا فإن جمل النص على العموم تتسم بالقصر، وقلة عدد الكلمات، وهي طبيعة في أسلوب كتاب العصر، وسمة من سمات الكتابة فيه، ولم يخرج عنها كاتبنا عبد الملك بن صالح.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه، أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده. أما بعد:

فقد طوفنا سريعا حول وصية عبد الملك بن صالح الهاشمي لولده، ووقفنا على كثير من المعانى والقيم الموضوعية والفنية، التى حرص الرجل على توجيهها إلى ولده، أو توجيه ولده إليها، حتى تتحقق له أسباب السيادة، والريادة، وهي قيم ونصائح قائمة على خبرة واسعة بالحياة، وخلاصة تجارب عاشها الوالد بين دهاليز السياسة والرياسة، أراد أن ينقلها في صورة كبسولات جاهزة، وتكمن قيمتها في أنها صادرة عن والد حريص كل الحرص على من يلقى إليه بالوصية، ومن هنا اكتسبت كثيرا من موضوعيتها وصدقها، بما فيها من عناصر تؤهلها للصدق الفني، والموضوعي.

وربما تكون الوصية قد اكتسبت تلك القيم الفنية والموضوعية، من توافق مضمونها وتطابقه مع الواقع، بمعنى أن الموصى لم يطل علينا أو يخاطبنا من برج عاجي، ولم يقدم لنا الوصية وهو بمعزل عن الواقع، بل كان يمتاح من هذا الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي أيضا، فلغته كانت لا تزال قوية جزلة سليمة، لم يداخلها التحريف ولم تلاحقها العجمة التى انتشرت مع اختلاط الأجناس والثقافات، إضافة إلى ثقافته التراثية إذا جاز هذا التعبير، التى قامت على الثوابت الداعمة للغة والأسلوب والمضمون، من تأثر بأسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد رأيناه يتمثل كثيرا من قيمهما في وصاياه، بما يؤكد على نبل الهدف وسمو الغاية.

وقد جاءت الوصية في إطار فني متنوع الأدوات، ما بين لغة معبرة، دقيقة، ومعان واضحة، وألفاظ جزلة قوية، وصور محلقة، وتوظيف لموسيقى الكلمة، على تنوع وسائله ومفرداته، من سجع وجناس وطباق وغيرها بما يكسب النص تفاعلا مع نبل الهدف وسمو الغاية.

المراجع

١- القرآن الكريم
٢- البيان والتبيين للجاحظ ط دار ومكتبة الهلال بيروت ١٤٢٣هـ.
٣- تاريخ الطبري ط٢ دار التراث بيروت ١٣٨٧هـ.
٤- جمهرة أمثال العرب لأبى هلال العسكري ط دار الفكر د.ت
٥- سنن الترمذي تحقيق بشار عواد دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٨م.
٦- شعب الإيمان للبيهقي تحقيق د.عبد العال عبد الحميد ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٣هـ –٢٠٠٣م.
٧- صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء الكتب العربية د.ت ١٩٩٧/٤م.
٨- الفاخر لأبى طالب المفضل بن سلمة بن عاصم تحقيق عبد العليم الطحاوي ط١ دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٠هـ.
٩- في تاريخ الأدب الجاهلي د.علي الجندي ط مكتبة دار التراث ١٩٩١م.
١٠- في النثر العربي د.حسين نصار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.
١١- قصة الأدب في الحجاز عبد الله عبد الجبار– محمد عبد المنعم خفاجي ط مكتبة الكليات الأزهرية د.ت

١٢- لباب الآداب أسامة بن منقذ تحقيق أحمد محمد شاكر مكتبة السنة بالقاهرة ط٢ ١٩٨٧م.

١٣- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ط دار الأرقم بيروت ١٤٢٠هـ.

١٤- مسند أحمد بن حنبل الشيباني ط١ مؤسسة الرسالة ١٤٢١٢هـ-٢٠٠١م.

١٥- المعجم الوجيز مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط وزارة التربية والتعليم ٢٠٠٠م.

١٦- نظرات فنية في الأدب الجاهلي د. فراج جودة فراج ط دار الثقافة العربية بالقاهرة ١٩٩٠م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٧
الوصية: طبيعتها وعناصرها	١٩
تاريخ الوصية	٢٣
من هو عبد الملك بن صالح؟	٢٨
التحليل الموضوعى والفنى للنص	٣١
أولاً: التحليل الموضوعى	٣١
الخاتمة	٤٥
المراجع	٤٧
فهرس الموضوعات	٤٩